الفصل الثاني عشر

فلسفة الطبيعة (١)

أ - الروح المطلق يباين نفسه فتظهر الطبيعة :

فهى إذن مظهره الخارجى الذى يعارضه وينافيه . وهى تتطور وفقا للمنهج الثلاثى : فهناك أولا الطبيعة فى ذاتها الممثلة فى الميكانيكا أى جملة القوانين الآلية التى تعبر عن مطلق الجسمية أو الوجهة الكمية فى الاجسام ، وثانيا الطبيعة لذاتها أى جملة القوى الفيزيقية والكيميائية التى تعبر عن الوجهة الكيفية، وثالثا الطبيعة فى ذاتها ولذاتها أى الجسم الحى .

ب - العقل الخالق :

كالعقل المتصور فى الانسان ، يبدأ بما هو أكثر تجردا وأقل إدراكاً، أى بالمكان والمادة . المكان موجود وغير موجود : والمادة شىء وليست شيئا ، مثلهما مثل الوجود الذى فى رأس المنطق . هذا التناقض هو مبدأ التطور الطبيعى والقوة الدافقة ، وهو ينحل فى «الحركة» التى تقسم المادة الى وحدات متمايزة وتكون منها السماء . إن تكوين الاجرام السماوية بمثابة الخطوة الأولى التى تخطوها الطبيعة فى طريق التشخص . توزع المادة وانتظامها فى السماء يمثلان مقولات الكم . والنزوع المنبث فى الطبيعة يبدو فى الجاذبية التى تحقق فكرة التناسب وتجعل من العالم جسما حيا . السماء مجتمع ابتدائى يشبه من بعيد المجتمع الانسانى .

جـ - وتتنوع المادة تنوعا كيفيا :

فيظهر النور ، يعارضه الحرارة ، فينحل هذا التعارض فى الكهرباء ، فيظهر من الكهرباء الكيمياء بعناصرها المتقابلة ، فتتفاعل هذه العناصر ثم

---

(١) من كتاب «تاريخ الفلسفة الحديثة» ليوسف كرم

تأتلف فى المركبات . فعلما الطبيعة والكيمياء يدرسان الاستحالة الباطنة والتغير الجوهرى .

د - ثم تظهر في القوي الفيزيقية والكيميائية الكائنات الحية التى هى مجاميع مركزة . لا بمعنى أنها وليدة المادة والآلية فحسب ، ولكنها وليدة تطور المثال أو الروح بواسطة المادة . ويلي الكائن الحى معارضة من الطبيعة الخارجية، فيثبت فرديته أو يحقق مثاله بالتمثيل المتصل والتنفس والحركة الحرة. وأدنى صور الحياة النبات، وهو بدن ناقص ، هو عبارة عن أعضاء كل منها فرد، فهو ضرب من تبديد الحياة فى هذه الحيوات الابتدائية المنفصلة ، المتجانسة إلى حد كبير الحاصل كل منها على قوة الحياة على حدة . ثم تتحقق الفردية فى الحيوان، فإن أجزاءه أعضاء بمعنى الكلمة أى خدام الوحدة المركزية ، وهى عبارة عن أنظمة منوعة ، كالنظام العصبى والدموى وما إليهما ، وهنا أيضاً درجات فان الحيوانية تترقى بالتدريج على رسم واحد إلى أن يصل الروح الخالق إلى جسم الإنسان ، فيقف عنده من حيث المادة ، ويغدق عليه الكنوز الروحية.

الإنسان والمجتمع :

أ - بعد أن يعارض الروح المطلق نفسه بالطبيعة ، يميل ضرورة الى التغلب على هذا التعارض بأن يستعيد نفسه بمعرفة نفسه . وهنا أيضا يبدو تطوره ثلاثيا: فأولا نجد الروح فى ذاته أو الروح الذاتى، أعنى الفرد مقر الظواهر الشعورية التى يدرسها علم النفس ، وثانيا الروح لذاته أو الروح الموضوعى، أعنى المجتمع ، وثالثا الروح فى ذاته ولذاته ، أعنى الاتحاد الأعلى للروح الذاتى والروح الموضوعى ، أو جملة الحياة الروحية للوجود متجلية فى الفن والدين والفلسفة .

ب - ماهية الانسان روح ، أى شعور وحرية . ولكن الشعور والحرية على درجات ثلاث : ففى الدرجة السفلى الروح مقارن للجسم ، ينمو وينضج ويشيخ

معه، إحساساته غامضة يقابلها انفعالات غامضة ، وهذه «جسمية الروح» (التى يسميها علم النفس الآن باللاشعور) . ثم يظهر الشعور الواضح ، فيدرك الإنسان ذاته ويدرك الاشياء ، وهذان إدراكان متعارضان ، يوفق بينهما «الفهم» الذى وظيفته إدراج الاحساس تحت قوانينه الأولية ، وجعل مدركات الشعور موضوعية ، ووضع الحقيقة على ما بين كنط . وفوق جسمية الروح والشعور الواضح المعين بالفهم نجد العقل الذى يؤلف بينهما إذ يجعل من قوانين الشعور قوانين الحياة ، أعنى أن النظر ينقلب عمليا حين يتخذ الروح ذاته موضوعا لإرادته، كما قال كانط ، فيتفق النظر والعمل . فالروح الذاتى ، حين يقر بالحقيقة والقانون ، يقر بسمو الروح الموضوعى ، ويقدمه على نفسه .

جـ – للروح الموضوعى مظاهر ثلاثة تقوم بازاء المظاهر الذاتية الثلاثية، هى الحق والواجب والمؤسسات الاجتماعية التى هى الأسرة والمجتمع المدنى والدولة، ففى حالة الطبيعة يسيطر على الفرد الانانية الحيوانية ، وفى حال الاجتماع ينتظم هذه الأنانية بالحق والقانون ، لأن الفرد يدرك بعقله أن الآخرين نظراؤه، وأن العقل والحرية والروحية (وهى مترادفات) خيرهم المشترك ، فيتخذ حرية أخيه الانسان قانونا لحريته هو أى حدا لها ، وهذا أصل التعاقد . ويبدو الحق فى التملك حيث يتناول الفرد شيئا خارجيا عاطلا من الإرادة فيجعله شيئه الخاص وينفذ فيه إرادته . ولكن الحرية المضمونة بالحق بالنسبة الى الأشياء الخارجية هى حرية ناقصة إذ أنها لا تعنى بالباعث الباطن ، فتدع مجالا للصراع بين الروح الذاتى والروح الموضوعى . ويزول هذا الصراع بأن يصير احترام الحق اراديا ، فتصير المطابقة للقانون «خلقية» تنظم الحياة الباطنة، على حين أن الحق لا ينظم سوى المنافع المادية . على أن الفرد ميال للانانية وللشر، فهو عاجز بمفرده عن تحقيق المثل الأعلى الأخلاقى ، فيجد المعونة فى المجتمع الذى يحرره من نفسه ويوفر له وسائل العمل الصالح .

د – المؤسسة والاجتماعية الأساسية هى الاسرة تنظم غريزة التناسل بالزواج والزواج بواحدة يكفل حسن تربية البنين . وعلى الأسرة يقوم المجتمع

المدنى وتقوم الدولة . فلا يعتبر الزواج أمراً عاطفيا فحسب، ولكنه واجب مقدس، ويجب أن يصدر عن الشعور بالواجب ، أى أن يعقد لأجل المجتمع والدولة ، وحينئذ يعد عملا خلقيا . لذا كان الطلاق منكرا مبدئيا ، ولا ينبغى أن يسمح به إلا فى حالات استثنائية يعينها القانون . والمجتمع المدنى يتكون من الأسر . ولكنه ليس صنعها أو صنع الافراد بحيث تكون الحكومة مسئولة أمامهم : إنه مرحلة فى تطور الروح المطلق ، فهو طبيعى لا عرفى . والغرض منه صيانة الحقوق وحماية المصالح الفردية ، وبهذا الاعتبار يمكن أن يتكون من قوميات مختلفة، مثلما يشاهد فى سويسرا . فهو ينظم غريزة الانتقام إذ يضع القصاص المدنى أو القانون الجنائى ، وينظم الانانية فى الحياة الاقتصادية . وليس القصاص المدنى انتقاما أو اصلاحا خلقيا . ولكنه جزاء عدل يمكن أن يذهب إلى حد الإعدام . أما غرض الدولة فيزيد على ما تقدم تحقيق الروح المطلق ، والتضحية بالمصالح الخاصة فى سبيله . فهى قومية ، لها لغتها ودينها وأخلاقها وأفكارها . هى إذن تامة الوحدة ، لا يقف منها الفرد موقف الخصم باسم النقد الشخصى . وهى غاية ، والاسرة والمجتمع المدنى وسيلتان اليها ، تستوعبهما فى وحدة عليا هى الروح المطلق محققا بتمامه . وجودها دليل «سير الله على الأرض» ويجب احترامها كما يحترم إله أرضى . نظامها لازم من طبيعتها التاريخية ولا يفرض عليها من خارج نظام من قطع الصلة بها ولو كان صادرا عن العقل . ليست الجمهورية أكمل انظمة الحكم ، سواء أكانت شعبية أو أرستقراطية : الجمهورية تسرف فى تقدير الفرد وتضحى بالمثل الأعلى فى سبيله أو فى سبيل الأسرة أو الطبقة . لذا اضمحلت الجمهوريات القديمة . النظام الطبيعى هو الملكية لأنها تشخص الدولة والفكرة القومية فى زعيم واحد هو محل سلطانها ورمز تقاليدها ، هو العقل اللاشخصى وقد صار عقلا واعيا ، هو الإرادة الكلية وقد صارت إرادة شخصية ، يستنير برأى مجلس تشريعى مكون من خير ممثلى القوى القومية ، وبخاصة القوى العقلية ، ولكن هذا الرأى استشارى بحت ، وسلطة الزعيم مطلقة ، وحكمة الروح المطلق تؤيده فتجنبه

الانحراف إلى الانانية والطغيان .

هـ – كيف تكون العلاقات بين الدول ؟ كان كنط قد أرتأى أن كل دولة فهى شخصية أدبية مستقلة فى الداخل خاضعة لقواعد الحق ، وأن الحالة الراهنة التى تعتبر فيها الحرب الوسيلة الوحيدة لفض المنازعات وتنظيم العلاقات الدولية، هى حالة وحشية يجب العمل على الخروج منها بايجاد «جمعية أمم» تنضم اليها كل أمة بملء حريتها ، وتشترك جميعا فى تسوية الخلافات طبقا لمبادىء العدالة الدولية . وبناء على ذلك كان كنط قد وضع فى ١٧٩٥ مشروعا لسلم دائم حيث يعين بالعقل الصرف فى عشر مواد الشروط الضرورية لتحقيق هذه الغاية. ولكن هيجل يرى أن ليس من شأن الفلسفة أن تفرض قوانينها على الوجود، وإنما شأنها ان تدرك القانون الذى يجعل الوجود معقولا ، من حيث أن كل وجود فهو معقول ، وكل معقول فهو وجود . وليس يوجد فى الواقع التاريخى جمعية أمم، وانما تبدو الدولة دائما كأنها المرحلة القصوى لتطور الروح المطلق تطورا موضوعيا. فيجب ان يستمد حل الأشكال من هذا التطور نفسه : إن التاريخ يظهرنا على أنه يوجد فى كل عصر من عصوره دولة مهيأة لأن تتزعم سائر الدول وتفرض عليها ما بلغت إليه من تقدم فى الحضارة ، هذه الدولة واجبها الفتح وانتصارها يبرر حروبها . الدولة الغالبة خير من الدولة المغلوبة بدليل غلبتها نفسها التى يجب أن تعتبر حكم الله . و «جدل التاريخ» يعرض علينا ثلاث مراحل كبرى : الأولى استبداد الدول الأسيوية الضخمة ، والثانية سيادة أثينا القائمة على الحرية والديمقراطية والثالثة التى تتفق فيها هاتان النزعتان المتعارضتان هى الحضارة المسيحية التى تُعد الجرمنية خير ممثل لها ، وبواسطتها سيتحقق الانتصار النهائى فى التاريخ وهكذا يعارض هيجل الفردية الحديثة التى ترى فى الفرد موجودا قائما برأسه ، وفى الدولة نتيجة تعاقد بين أنانيات مختلفة ، فيرتب الفرد للأسرة والمجتمع ، ويقول إن الاسرة والمجتمع المدنى والدولة شروطها ، إذا روعيت برزت أمام الفرد واجبات ضرورية .

الفن والدين والفلسفة :

أ – مهما تبلغ الدولة من كمال ، فهي ليست الغاية القصوى التى يتجه إليها تطور الروح ، وليست الحياة السياسية المظهر الأخير لنشاطه . أن ماهية الروح الحرية ، واكمل دولة فهى لا تخرج عن كونها قوة خارجية ، لذا يصعد الروح إلى أعلى من الدولة ، ويعمل على تحقيق يجده فى نفسه من مثل أعلى للجمال والله والحقيقة، فيولد الفن والدين والفلسفة ، ويصير الروح المطلق بالفعل إذ يتحقق على هذا النحو فى نفس الانسان .

ب – بالفن أحرز الانسان أول انتصار على المادة قبل أن ينتصر عليها انتصاراً كليا بالعلم . فان الفن انزال فكرة فى مادة وتشكيلها على مثالها. ولكن مطاوعة المادة متفاوتة : وهذا أصل تعدد الفنون الجميلة تتدرج من المادية إلى الروحية . وهي تتوزع طائفتين : طائفة الفن الموضوعى تشمل العمارة والنحت التصوير ، وطائفة الفن الذاتى تشمل الموسيقى والشعر . فى العمارة نجد الفكرة وصورتها متمايزتين جد التمايز لعصيان المادة وتمردها ، المادة هنا اغلظ مواد الطبيعة . لذا كانت العمارة فنا رمزيا بحتا يدل على الفكرة ويعبر عنها تعبيرا مباشرا . إن الهرم والمعبد الهندى والمعبد اليونانى والكاتدرائية المسيحية رموز جميلة ، ولكن المسافة بينها وبين ما نرمز إليه بعيدة بعد السماء عن الأرض. تشبه العمارة السماء ذات الأبعاد الهائلة والعظمة الساحقة ، فانها تترجم عن القوة الرابضة واللانهاية الدائمة ، ولكنها عاجزة عن تأدية حركة الحياة . في النحت تتقارب الصورة والفكرة إلى حد ما ، فإن هذا الفن ينفخ روحا فى المادة الغليظة ، كالحجر والرخام والنحاس ، ويبقى عاجزا دون التعبير عن النفس ذاتها كما تبدو (من النظرة) التصوير يحقق هذا التقدم ، فانه يستخدم مواد أكثر لطافة، ويقتصر على رسم سطح الجسم ، ويوحى بالعمق بوساطة السطح . ولكنه لا يعبر إلا عن وقت من أوقات الحياة يتنبه فى المادة . وهذه خاصية مشتركة بينه وبين النحت والعمارة . لذا كانت هذه الفنون متلازمة تأتلف على انحاء كثيرة بالموسيقى نبلغ إلى الفن الذاتى ، فانها ترجمة عن انفعالات النفس والوانها

المختلفة الى غير نهاية . تستخدم الصوت ، وهو شيء لطيف ، ولكن الصوت فيها رمز كالبناء في العمارة ، فهو مبهم غامض كالانفعالات الذى يترجم عنه، ولهذا السبب تحتمل القطعة الموسيقية تأويلات عدة . في الشعر يصل الصوت إلى درجة الكمال فان الصوت فيه قول معقول ونطق يعبر عن كل شيء : عن الطبيعة والانسان وأحداث التاريخ : يطاوع الفكر في حميع ثناياه فيبنى وينحت ويصور ويغنى ويروى، فهو مجمع الفنون ، وهو من ثمة الفن الكامل . الملحمة تمثل الفنون الموضوعية الثلاثة تصور مثلها الطبيعة وآياتها والتاريخ وأمجاده . ولكنها طفولة الشعر ، هى ثرثارة طويلة كالسنين الأولى من سنى الحياة ، وفيرة الصور، زاخرة بالعجائب والغرائب كمخيلة الاطفال والشعر الغنائي يقابل الموسيقى ، يأوى إلى العالم غير المنظور المدعو بالنفس الانسانية ولا يتعداه ، فهو محدود ناقص ، والشعر الدرامى أكمل انواع الشعر ، هو شعر الشعر ، يجمع بين العالمين الظاهر والباطن ، فيمثل التاريخ والطبيعة والنفس ، ولا يزدهر إلا فى أرقى الشعوب حضارة .

جـ – وللفن على العموم ، ولكل فن على الخصوص ، تاريخ فى ثلاثة عصور: فالفن الشرقى رمزى يستخدم الامثلة ويستلزم التأويل ويحتمل منه وجوها عدة. لا يقوى بعد على اخضاع المادة ، فيزدرى الصورة الخارجية ولا يعنى باجادتها، يحب الكبر والعظم واللانهاية ، ويغلو فيها ، أما الفن اليونانى فيصطنع التعبير المباشر بدل الرمز ، فتجيء مصنوعاته مفسرة أنفسها بأنفسها ، لأنه ينزل الفكرة كلها فى الصورة . غير أن هذا الكمال يورثه نقصا ، فإن تمام حلول الفكرة فى المادة يفنيها فيها ويضحى بها فى سبيل الصورة الظاهرة والجمال المحسوس . المسيحية تتلافى هذا النقص : فانها ترفع الفن من العالم المنظور حيث ضل وضاع ، إلى العالم المعقول ، موطنه الحق ، وتستبدل بالجمال الحسى الجمال المعنوى ، وتعبد العذراء مثال الطهارة والقداسة بدل فينوس . ولكن أنى للصورة المادية أن تطابق المثل الأعلى ، لذا كان الفنان المسيحى عديم الرضا عن آياته الفنية مهما تبلغ من إتقان . إن العذراء التى يتخيلها ، والمنازل الأبدية التى

يرنو اليها ، والألحان السماوية التى يرهف لها سمع نفسه ، والحياة الاليهة التى يحاول الإعراب عنها ، كل أولئك أرفع وأجمل من أن يوضع في المادة ، فييأس من قدرته ، ويعود إلى ازدراء الصورة والغلو فى الروحانية .

د – هذا الشعور بالعجز عن تصوير المثل الأعلى فى المادة هو أصل الدين، وموضوع الدين المثل الأعلى او اللامتناهى مدركا فى الباطن ، وموضوع الفن التعبير عنه فى الظاهر . فالدين بما هو كذلك منحدر عن الفن ، وإن يكن الفن محاولة دينية أولى . الوثنية أداة الوصل بين الفن والدين . ولها مراحل ثلاث : المرحلة الأولى السحر الذى يقدس القوى الطبيعية العاطلة من الشعور ، والمرحلة الثانية البوذية التي تعبد إلهاً روحيا ولكنها تتصوره عاطلا من الشعور كذلك، والمرحلة الثالثة الزرادشتية التى تقول بإله مجرد تسميه النور يحاول إثبات ذاته بازاء الظلمة التى هى نفي وسلب ، هذه الأديان الشرقية تعتبر الله موجودا كليا غير ذى شخصية فتعارضها أديان «الشخصية الروحية» وهى : الموسوية التى تمثل الإثبات ، والديانة اليونانية التى تمثل النفى ، والديانة الرومانية التى تمثل المركب من النفي والاثبات . الموسوية أدركت استحالة التعبير عن اللامتناهى ، فحظرت تصويره بأى شكل كان ونبذت الأوثان ، ولكنها لم تحظر تصوره فتصورته موجودا شخصيا مفارقا للعالم كلى القدرة . ففيها وفى سائر الديانات الشرقية اللانهاية هى الغالبة . إله الشرق شبيه بملوك الشرق : هو المتصرف الأوحد ، يحيى ويميت ، يرفع ويضع ، يريد ويفعل ، وما علي الانسان إلا التسليم، ويقدر ما كان الشرق متدينا كان اليونان مشغوفين بالطبيعة وبالأرضيات، فتصوروا الله على مثال الانسان ، أى أنهم فى الواقع عبدوا الإنسان بعقله وجماله وقوته . ولكنهم لم يتحرروا من العقلية القديمة تمام التحرر: فقد نصبوا القدر فوق البشر ، وفوق الآلهة انفسهم ، وهذا القدر هو اللامتناهى ، يتهدد البشر فى كل آن وينغص حياتهم ويشعرهم بأنهم عدم . أما الرومان فكانوا أهل جد وصرامة ، فوضعوا الأخلاق الصارمة قانوناً للحياة، وعادوا الى روحانية الألوهية معتبرين الآلهة معينين على تحقيق أوامر الضمير الانساني .

هاتان الصورتان المتعارضتان ، اللاشخصية والشخصية ، تأتلفان فى المسيحية القائمة على أن المسيح إله وإنسان معا ، فتتصور اللامتناهى ينزل من عرشه ، ويدخل في منطقة المتناهى ، فيحيا حياتنا ويتألم ويموت ، ثم يبعث فيعود إلى مجده ، ففيها إثبات ونفى وتركيب . وهى تختصر الأديان وتصفيها وتكملها ، كما يختصر الشعر الفنون الجميلة ، فهى الدين المطلق .

هـ - بيد أن المسيحية نفسها ليست القمة التى ينتهى عندها تطور الروح، فإن الفن والدين يؤديان الي الفلسفة ويأتلفان فيها . الثلاثة تقول إن كل شيء صادر عن روح لا متناه . ولكن الفن والدين وليدا العاطفة والمخيلة ، أما الفلسفة فتحقيق ما يرمزان له . هى انتصار العقل الخالص بفهم الوجود فيتحرر منه. كانت الطبيعة وقواها ، والدولة ومؤسساتها ، تبدو كأنها أشياء خارجية مفروضة على الإنسان ، والآن ترى الفلسفة فى افعال الطبيعة افعال العقل اى افعال الانسان، وفى المؤسسات الاجتماعية صورة السلطة الاخلاقية التى يحملها فى نفسه . فليست ترمى الفلسفة إلى محو المعانى الدينية بل إلى إحالتها معانى عقلية. وفى الفلسفة فقط يتحقق الروح المطلق أو الله تمام التحقق ، لأن فيها تصل الثقافة الانسانية إلى أقصاها . وما المذاهب الفلسفية التى يسجلها التاريخ إلا حلقات فى سلسلة التقدم نحو هذا النصر النهائى ، أى إنها درجات متفاوتة للفلسفة .

مقولات الروح المطلق